من تراب الطريق (٤٤٣) على هامش معالم التقريب!(*)

حدثتك مرارا عن أبى الروحى، وأستاذى الجليل محمد عبدالله محمد، ومن درره التى حدثتك عنها فى مناسبات مختلفة كتابه الرائع: «معالم التقريب» بين المذاهب الإسلامية .. كان هو الكتاب الوحيد الذى أخذته مع القرآن المجيد فى رحلتى لإجراء جراحة فى القلب بالولايات المتحدة فى يوليو ١٩٩٠ .. ما رجعت إلى هذا الكتاب إلاّ وازداد إعجابى بما فيه من عمق ونفاذ بصيرة ..

يبدو فيما نستخلصه من معالم التقريب - من محمد عبد الله محمد، أننا أحوج الأمم إلى تذكير أنفسنا بأن مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال، أقوى كثيرا وأبعد أثرا وتأثيرا من مخاطبتهم بالكلام. الكلام بغير أفعال تصادقه وسلوك يشهد به، أشبه بالحرث فى البحر، لا صدى حقيقيا ولا طحن له. يسهل علينا الكلام لأنه لا يقتضينا مجهودًا ولا يلزمنا بالتزام، ومن الناس من يعشق التشدق به خطيبًا أو متحدثًا أو متخايلًا، لا يلقى بالًا لأثر كلامه الذى لم يجاوز فى مقصده إبهار السامعين ببلاغته وفصاحته!

وقد يبدو للوهلة الأولى، أن الدعوة القولية هى وحدها التى تقبل الإعداد والتخطيط والتنظيم واتباع المناهج وتعديلها حسب ظروف الزمان والمكان، وأن الدعوة عن طريق مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال، تستعصى على فكرة الإعداد والتخطيط والتنظيم والمناهج؛ لأن زمام هذا النوع من الخطاب فى يد آحاد، يتوقف على سلوك كل منهم الشخصى، بيد

(*) المال ٦/ ٥/ ٢٠١٠.

أن هذا الظن غير صحيح ، فالسلوكيات والتصرفات والأفعال تقبل بدورها الدراسة والإعداد والتنظيم ، ولكنها تحتاج إلى مزيد من الصدق ، ومزيد من شجاعة القلب وقوة التماسك والثبات .

ومهما سلمنا بوجود قدر فى خطاب الدعوة يجرى بالمواقف والتصرفات والأفعال ، إلاَّ أن الدعوة القولية هى الطاغية ، فهى أقل مشقةً وأيسر أداءً ، فلا يقتضى بذل الكلام جهدًا كثيرا ولا عناءً ، ولا يكلف صاحبه فى الأغلب تضحية فى أطماعه أو فى أمواله ، ولا يقتضيه تغييرا فى عاداته وأسلوب حياته ، فى الوقت الذى يجذب إليه الأنظار ، ويحقق له السمعة ، ويشهد لـه بين الناس بالعلم والفضل .

ويبدو أن اعتقادنا المبالغ فيه فى قوة الكلام وقدرته ، نابع من كوننا قد عشنا أحقابا على الأمانى ، ففقدنا ثقتنا بالمحدود المعين المقدور فى التنفيذ ، وفقدنا الاستعداد النفسى لبذل الجهد . والصوفية على سواء حين يفرقون بين «الرجاء» باعتباره الثقة فيما عند الله التى تحدث للعامـل الناشط ، وبين «الأمنية» من حيث احتمال تحقق المراد المأمول بغير اتخاذ أسبابه . ونحن بين يدى الأمنية نتخلى عن الإرادة أو ما يتصل بها من عمل ورجاء معقود بالله طى هذا العمل ، ونستسلم استسلاما تاما مريحا لما ستجىء به الأيام كيفما تجىء . على أن فقدان الرجاء يعطل معظم إرادة الإنسان ، فيعاف ويكره كثيرا مما يحتاج إلى جهد ومثابرة ووقت . لذلك ففقدان الرجاء معناه فقدان أهم وأشرف حافز ـ يحفز إرادة الآدمى ويحركها إلى العمل والمثابرة عليه وإتقانه وتجويده . وقد تحول ذلك مع الزمن إلى داء مزمن ضمرت معه الإرادة البشرية ، واستغنى الناس بالأمنية عن الرجاء ، واكتفوا فى ظل

الإرادة الضامرة بالانتظار ، واعتادوا عليه ، هاربين دائما من الرجاء الخصب إلى غرور الأمانى الجدباء .

وخلال ذلك وقع الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، فاعتقد البعض أن الإسلام بسيط بمعنى أنه سهل لا يتقاضى من المسلم جهدا ولا عزيمة ولا تضحيات ، وأدى هذا ومهد ووطد لسيادة الكلام والفصاحة وحلولها محل الأعمال والأفعال .

لا ينبغى لعاقل أن يتصور أن الإخلاص لله تعالى أمر هين لين ، فكيف يتصور أن يكون الإسلام سهلا هينا ؟!

بساطة الإسلام معناها أنه قادر قدرة عجيبة على إبراز ما هو جوهرى ومفيد فى أغراضه ، وعلى استبعاد كل ما يحجب الجوهر من الحواشى والتفصيلات . فبساطة الإسلام ترجع إلى أدائه لمضمونه ، ومقدرته على أداء هذا المضمون أداء ناصعًا مباشرا . وهذه البساطة نقيض تلك السهولة الكلامية البدائية التى تكتسح ما هو جوهرى وأساسى . فالإسلام بسيط من جهة حرصه الشديد على رؤية ما هو جوهرى وما هو مفيد فى الحياة ، مرتسمًا بقوة على سلوك المؤمن وتصرفاته فى حياته الخاصة والعامة .

وكما حصل الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، حصل التمييز بين المتدين والمستقيم ، فلم تعد البيئات الإسلامية تعتبر التدين مرادفاً للاستقامة ملازمًا لها لا ينفك عنها .

وقد نتج عن طول سيادة الكلام وانفصال الدعوة القولية عن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال والسلوك ـ نتج عن ذلك أن ضعفت قدرة اللغة الإسلامية عن التوصيل ، وانفصلت فى الغالب عن الواقع والحقيقة !

إن وراء ميل معظمنا إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة والإصلاحات الكلية ، وراءها فضلا عن جاذبيتها ـ بقية من فقدان الرجاء وضمور الإرادة والهرب من ملاقاة الواقع والتعامل معه ومعاناته . ولن يستطيع أفراد المسلمين أن يصلحوا واقعهم ـ مع المحافظة على حرياتهم وحقوقهم ـ إلا إذا لاقوا هذا الواقع بأنفسهم ، وعانوه بأشخاصهم منفردين ومشتركين فى إصلاحات جزئية وأغراض معينة محددة يكون فى استطاعتهم هم التعرف عليها والقيام بتنفيذها .

وهذا يأخذنا إلى قضية أخرى هى قضية اتجاه الإسلام : هل هو يتجه إلى الماضى كما ينعى عليه خصومه ، أم أنه يتجه إلى الأمام نحو المستقبل متخذًا من الماضى قوة تؤيده وتسدد خطاه ؟

والملاحظ أن الناس يقبضون على ماضيهم بعناد وإصرار وتعصب حين لا ينجح الحاضر فى اكتساب ثقتهم ، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم ، وحين يحسون أن القيم اللازمة للحياة الكريمة ـ غير مصونة ولا محترمة .

وهذه آفة خطيرة ؛ لأن الإنسان ابن مستقبله ، وليس ابن ماضيه أو حاضره .. لكنه يتخوف من غده دائمًا بالالتفات إلى الحاضر وتصوره للماضى !

*****